﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [الأنفال: 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بين معاملة الأسرى، في حالتي المسالمة والخيانة، وبين كون الله قادرًا عليهم

لمّا أمَرَ اللّهُ سُبحانَهُ نبيَّهُ ﷺ في الآيةِ السّابقة بعَرضِ البُشرَى على الأَسرى في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وكانَ تقديرُ الكلامِ: فإنْ صدَّقوك وقبِلوا هذه البُشرَى مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ، فإنَّه يوفِّي لَهُم ما وعدَهُم؛ جاءَت هذه الآيةُ تسليةً لرسول اللّه ﷺ وتطمينًا له من غدرِهم ومكرِهم إذا خانوا رسول اللّه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِيَانَتَكَ﴾: الخاءُ والواوُ والنّونُ تدورُ تصاريفُها على مَعنَى التَّنَقُّص، ومِنهُ: الخيانَة، يُقال: خانَهُ يخونُهُ خَونًا وخيانَةً؛ إذا نقصَ وفاؤُهُ[2]، وحقيقةُ الخيانَةِ: أن يُؤتَمنَ الإنسانُ، فلا يَنصَح[3]، أو هيَ: مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[4]، ومِن هذا قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾.

2) ﴿فَأَمۡكَنَ﴾: الميمُ والكافُ والنّونُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى رُسوخِ الشَّيءِ مُتَجَمِّعًا مِن دُقاقٍ في باطِنٍ يَلتَئِمُ عليه، ومِنه قولُهُم: مَكَّنَهُ مِنَ الشَّيءِ، ومَكّنَ له، أي: جَعَلَ له سُلطانًا عليه، وقَدّرَهُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/335.
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (خون)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 1/286.
(4) الرّاغب، المفردات: (خون).

والتَّمكينُ مِنَ الشَّيءِ: إنالةُ ما يَصِحُّ الفعلُ بِهِ مِنَ الآلاتِ والقوَى، و(أَمكَنَ) يَرِدُ بمعنى (مكَّنَ)، ومِنه قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ ومعناهُ: مكَّنَ المُسلِمينَ مِنهم، وجعَلَهُم أَسرَى في أَيديهِم[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مَـنْ خـان اللـه ورسـولـه من الأسـرى، أمكن اللـهُ منـهـم، واسـتـأصـل شَأفتَهم

في هذه الآية يقولُ اللهُ تعالى لرسوله: وإنْ يُرِد هَؤُلاءِ الأَسرى الّذينَ في أَيديكُم الغَدرَ بِكَ والمَكرَ والخِداعَ، بإظهارِهِم لكَ بالقَولِ خلافَ ما في نُفوسِهم، فلا تَيأَس؛ فقَد خالَفوا أَمرَ اللهِ سُبحانَهُ مِن قَبلِ معرَكَةِ بَدرٍ، فأَمكَنَ منهم المُؤمِنينَ ببدرٍ، واللهُ عليمٌ بما يقولونَ بأَلسِنَتِهِم، ويُضمِرونَهُ في نُفوسِهِم، حَكيمٌ في تَدبيرِهِم وتَدبيرِ أُمورِ جَميعِ خَلقِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الوَصلِ بربط الآية الكريمة بِما قَبلَها:

الـجَـمـعُ بَـينَ الوَعدِ والوَعيدِ مِـن طَـرائِـقِ القُرآنِ الكَريمِ في البيان

وُصِلَ قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بما قَبلَهُ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتَينِ مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالَينِ، وذلكَ أنَّ كِلتا الجملَتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما تضادٌّ، وذلكَ أنَّ الجُملَةَ الأولَى واردَةٌ على جِهَةِ الوَعدِ، فهي كلامٌ مَسوقٌ من جهته سبحانَه طمأنةً وتسليةً للنّبيّ ﷺ بطريق الوعدِ، وليُبلِغ مضمونَه الأسرى ليعلموا أنّهم لا يغلبون اللهَ ورسولَه، وهذا من باب الوعيدِ لهم كما في الجملةِ الثّانيةِ.

نُكتَةُ تَعليقِ الشَّرطِ بـ(إنْ):

خيانَةُ الأَسرَى للنَّبيِّ ﷺ ليسَ مَقطوعًا بها

(إنْ) في أصلِ وضعِها تدلُّ على عَدَمِ القَطعِ بوقوعِ مدخولِها، وعُلِّقَ الشَّرطُ بها في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾؛ جريًا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مكن).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، ونخبة من العلماء، التَّفسير المُيسَّر، ص: 186.

على الأَصلِ في إفادة الشَّكِّ؛ إذ إنَّ خيانَتَهُم النَّبيَّ ﷺ ليسَ مقطوعًا بها؛ لأنّ وضعَ الأسيرِ بما يُؤخَذُ عليه من شروطٍ والتزاماتٍ يجعلُه في موضع الالتزام بما طُلِبَ منه من عدمِ قتالِ المسلمين وتأليبِ الأعداءِ عليهم، وأيضًا؛ لأنّ رسولَ اللّه ﷺ بقيادته للمسلمين في موضعِ القوّة؛ ففكرةُ العودةِ إلى الخيانة أمرٌ مشكوكٌ فيه، ولما تحمله جملةُ الوَعدِ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مِن ترغيبِهم في الإسلام وحُسنِ التّلطّف معهم.

سِرُّ التّعبيرِ بأسلوب الشَّرط عن إرادة الخيانة:

جاءَ التّعبيرُ بإرادَةِ الخيانَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ دونَ الخيانَةِ نفسِها، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وَإِنْ يخونوكَ)؛ وذلك لأنَّ سياقَ الآيَةِ واردٌ لِمَعنَى الوَعيدِ، وتعليقُ الوعيدِ على إرادَةِ الخيانَةِ أَبلَغُ مِن تعليقِهِ على الخيانَةِ ذاتِها، وفي هذا إظهارٌ لسُرعَةِ عقابِ اللّهِ تعالى لِمَن تَبدُرُ منه مبادئُ الخيانَةِ بإرادتِه لها.

عِقابُ اللهِ تعالى لِمَن أبدى من الخيانة ما يستحقّ به الإهانة

دلالةُ التّعبيرِ بعبارة: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالإرادة دون النِّيَّة؛ لأنّ الإرادةَ عزمٌ على الفعل؛ فتحوَّل من مجرَّد خاطرٍ إلى فعلٍ له أثرٌ في الواقع، بأن يعودوا للقتال مرّة ثانيةً، أمّا النِّيَّة؛ فهي مجرّد خاطرٍ لا يخرجُ إلى الواقع، ومن رحمةِ اللّهِ أنّه لا يحاسبُهم على هذا الخاطر لعلمه بما يقعُ في نفوس المأسورين.

الإرادةُ عزمٌ، والنّيّة خاطرٌ، ولكليهما دور في نجاح العمل واكتماله

دلالةُ التّعبير بالإضمار في ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾:

عبّرَ بالضّمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾ لتعدُّد المُرادِ بهذا الضّمير؛ فبعضُ العلماء يرى أنّه يعودُ إلى الكفّار الّذين يخونون العهودَ في المستقبل، وبعضهم يرى أنّه يعودُ إلى الّذين جنحوا للسَّلم في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، ولا يعبأُ الرَّسول ﷺ بما يفعلون إن

اختلافُ مرجعِ الضّميرِ، إثراءٌ للسّياق أثير

أرادوا الخيانةَ بعد أن جنحوا للسَّلم، وذهب البعض إلى أنَّ الضمير يعودُ للأسرى الّذين عاهدوا النّبيَّ ﷺ أن يكفّوا أذاهم عنِ المسلمين فإن خالفوا ذلك، ولم يكفّوا فلا تأبه بهم؛ فالملاحظُ أنّ التّعبيرَ بالضّمير في قوله: (يريدون) أعطى مساحةً في المرادِ بهم، ولو عبّرَ بالظّاهر؛ لاختصَّ بفريقٍ أو بجماعةٍ دون الآخرين.

سرُّ التّعبيرِ بالخيانة دون غيرها:

وُرودُ التّعبير بالخيانة، للتّنفير منها، ومن مُرتكبيها

آثرَ التّعبيرَ بالخيانة دون غيرها في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾؛ لأنّ الخيانةَ تُقال اعتبارًا بالعهد والأمانة؛ لذلك كان اختيارُها هو المناسبَ لهذا السِّياق؛ لأنّ الخيانةَ تعني مخالفةَ الحقِّ بنقض العهدِ في السِّرِّ، وهذا هو المناسبُ لسلوك الأسرى إذا خانوا العهد[1].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿خِيَانَتَكَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ أفضلُ الخَلقِ مَجدًا، وأوثقهم عَهدًا

إضافَةُ الخيانَةِ إلى ضميرِ الخِطابِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ من إضافَةِ المصدَرِ إلى مفعولِهِ، والمعنَى: وإنْ يُريدوا أَن يَخونوكَ.

وضميرُ الخِطابِ يُرادُ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، وخُصَّ بذلكَ لكونِهِ أفضَلَ الخَلقِ في شرَفٍ وأَعلاهُم في عَهْدٍ[2]، وفيها إشارةٌ إلى أنّ خيانةَ الرَّسول ﷺ خيانةٌ للّه.

سرُّ التّعبيرِ بالمصدر الصَّريح:

إفادةُ تأصُّلِ الفعلِ من مُرتكِبه، دلالةٌ على دقّة الاستعمال وأصالته

آثرَ التّعبيرَ بالمصدر الصَّريح ﴿خِيَانَتَكَ﴾، دون المصدر المؤوّلِ (أن يخونوك)؛ لأنّ المصدر الصّريح يدلُّ على الحدث من غير زمنٍ؛ فكأنّه يشيرُ إلى أنّ أمرَ الخيانةِ في هؤلاء الأسرى، أو على أنَّ المرادَ بهم الكفّارُ الّذين تكون الخيانةُ من طبائعهم الّتي لا تنفكُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (خون).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

عنهم، يؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، أمّا المصدرُ المؤوّلُ؛ فيدلُّ على الخيانة مع تجدُّد الزّمن.

دِلالَةُ (الفاءِ) في ﴿فَقَدْ﴾:

الفاءُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ داخِلَةٌ على ما قامَ مقامَ جَوابِ الشَّرطِ[1]، ودخولُها هَهُنا واجِبٌ؛ لاقترانِ هذه الجُملَةِ بـ(قَد)، وجوابُ الشَّرطِ الحقيقيُّ محذوفٌ، والتَّقديرِ: وإن يُريدوا خيانَتَكَ؛ فإنَّ ذلك غيرُ مُستَبعَدٍ منهُم؛ فقد خانوا اللّه سُبحانَهُ من قَبلُ[2]، ففيه إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ طُوِيَ مِنَ الكلامِ ما دلَّ السِّياق عليه.

مَـن تَـقَـدَّمَـت منه خيانَةٌ؛ لا يُستَبعَدُ مِنه تَكرارُها

نُكتَةُ التَّأكيد بـ(قَد):

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، جملَةٌ خبريَّةٌ دَخَلَت عليها (قَد)، فأفادَت تقويَتَها وتأكيدَ مضمونِها، وأنَّ خيانتَهُم مِن قَبلُ ثابتَةٌ ثُبوتًا مُؤكَّدًا، ومَن ثبتَ ذلك عنه مرَّةً لا يُستَبعَدُ صدور ذلك منه مرَّةً أُخرَى.

الوُقوعُ في الجُرمِ مَـرَّةً، مَـظِـنَّـةٌ لِلعَودِ إليهِ، إذا غابت الخشية لله

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿خَانُواْ﴾:

عبّرَ عن خيانتهم بالفعل الماضي ﴿خَانُواْ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق وقوعِ الخيانةِ منهم؛ حيث عبدوا الأحجارَ والأوثانَ، وهمّوا بقتلِ الرّسول أو حبسِه أو إخراجِه من مكّةَ، وكلُّ ذلك من بابِ الخيانةِ العظمى.

خيـانَـةُ المشركِ مُـتـحـقِّـقَـةٌ، في خيانته للمعبود الواحد

دلالَةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة (الله):

عُلِّقَت خيانَتُهُم باسمِ الجلالة (اللّه) في قولِه ﷻ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ تعظيمًا لهذهِ الخيانَةِ؛ إذ خانوا المَلِكَ الأعظَمَ الجامعَ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ[3]، وإذا صدرَت هذه الخيانَةُ العظيمَةُ مِنهُم؛ فخيانَتُهم لنبيِّهِ ﷺ غيرُ مُستغرَبَةٍ ولا مُستَبعَدَةٍ.

خيـانَـةُ النَّـبـيِّ الأكـرم جُـرمٌ، وخـيـانَـةُ اللـهِ تعالى أعظَمُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/232.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/96.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

دِلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِن قَبْلُ﴾:

الـحُـروفُ ذاتُ مـعـانٍ في إبـرازِ دَقـائِـقِ البيان القُرآنيّ

(مِنْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أفادَت مَعنَيين: أحدُهُما: تَوكيدُ المَعنَى وتَقويَتُهُ، وهذا هو المَعنَى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مع (قَبلُ) و(بَعدُ)، والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ خيانتَهُم لَم تَكُن مُستغرِقَةً للزَّمَنِ[1].

الإيجازُ بالحَذفِ في سياق الآية الكريمة:

خيانَةُ العِبادِ لله تـعـالى، تَـكـونُ بالكُفرِ والشِّرك وما دونَهُما

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ حُذِفَ المُضافُ إليه، وقُصِدَ معناهُ دونَ لفظِهِ، ولذا بُنِيَ (قَبلُ) على الضَّمِّ، والتَّقدير: فقد خانوا اللّه تعالى مِن قبلِ هذا الوقتِ بالكُفرِ وغيرِهِ مِن أنواعِ الفِسقِ[2].

دلالةُ الإخبارِ بخيانتهم لله:

خيانةُ المشركين لن تضرَّ النّبيَّ ﷺ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ خيانتَهم للّه؛ لطمأنةِ النّبيِّ ﷺ بأنّ ما يفعلونه معك ليس تهوينًا من شأنك؛ لأنّهم ارتكبوا الخيانةَ مع اللّه قبل ذلك، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّهم إن أعادوا الخيانةَ فسنُسلِّطُك عليهم كما فعلنا فيما مضى[3].

دِلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأَمْكَنَ﴾:

سُـرعَـةُ عـقـابِ الـخـائِـنـينَ، تُناسب ما يَبدُرُ منهم من سرعة الخيانة

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ عاطِفَةٌ[4]، وهي واردَةٌ على أصلِها في الدِّلالَةِ على التَّعقيبِ، وفي هذا دِلالَةٌ على سُرعَةِ إنزالِ اللّه تعالى عُقوبَتَهُ بالخائِنينَ، وفي هذا زجرٌ لمَن تُسوِّل له نفسُه فعلَ الخيانة مع اللّه ورسوله.

سِرُّ التَّعبيرِ في ﴿فَأَمْكَنَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالتَّمكين في قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾؛ لأنّ التّمكينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.
(3) حاشية القونويّ: 9/136.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/46.

يُطلَقُ على المكان والمكانة؛ فيُقال: مكَّنتُ له فتمكَّنَ، ويُقال: مَكَانٌ ومَكَانَةٌ[1]؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ به دون القُدرة مثلًا؛ لأنّ التّمكينَ أعمُّ منَ القدرة؛ فالتّمكُّنُ منهم يعني القُدرةَ عليهم؛ بخلاف ما لو عبَّرَ بالقُدرة فإنّه قد لا يكون معه التّمكين؛ لأنّ القدرةَ وصفٌ لهيئةِ الإنسانِ إذا كان قادرًا على فعل شيءٍ ما، وأيضًا لأنّ التّمكينَ يشيرُ إلى عُلوِّ المكانة.

لفظُ (التَّمكين) فيه علوٌّ وقـوَّةٌ، والـلـه أعـلى وأقـوى مـن كـلِّ عُتلٍّ جبّارٍ

نُكتَةُ العُدولِ في ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ عُدِلَ عَنِ التَّعبيرِ بـ (فخانَهُم)، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ (وإن يُريدوا خيانَتَكَ فقد خانوا اللهَ مِن قبلُ فخانَهُم) على ما في نظائرِه، كقوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: 142]، وقولِهِ جلَّ وعلا: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]؛ وذلِكَ لأنَّ الخيانَةَ خِداعٌ في مَقامِ الائتمانِ، فهيَ بهذا الاعتبارِ نقصٌ بكلِّ حالٍ، وليسَ فيها وجهٌ للكمالِ[2]، بخلافِ الخِداعِ والمَكرِ فإنَّه يقَعُ فيها الكمالُ والمدحُ، وهُما بهذا الاعتبار مِن أوصافِ اللهِ تعالى على سبيلِ المقابلَةِ، ولا يصحُّ إرادَةُ ما فيهما مِن معاني النَّقصِ، أمّا الخيانَةُ؛ فلا مَدحَ فيهما ألبتَّةَ، ولذا لَم يَجُزْ أَن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (فخانَهُم)؛ لتمحُّضِ الخيانَةِ لمعاني النَّقص.

تَمَحُّضُ الخيانَةِ لِمَعاني النَّقصِ وسوء التَّصرُّف

دِلالَةُ الإيجازِ بالحَذفِ في سياق الآية:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ دليلٌ على مَحذوفٍ في قولِهِ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾، والتَّقديرُ: وإنْ يُريدوا خيانَتَكَ فإنَّ ذلكَ ليسَ مُستبعَدًا مِنهُم،

بيانُ التَّحذيرِ مِنَ العاقِبَةِ السَّيِّئَةِ للخيانَةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (مكن).

(2) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/143.

وسَيُمكِّنُكَ اللّهُ تعالى مِنهم، مِثلَ ما أمكنَ مِنهُم مِن قَبلُ عِندَ وقوعِ الخيانَةِ[1].

لفظُ (أَمْكَنَ) بَينَ المجازِ والكِنايَةِ:

المُبالَغةُ في تَهديدِ الخائِنينَ، محاولةٌ لرَدْعِهم عن فِعلِهم المُشين

الفعلُ (أَمْكَنَ) مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ المكانِ، والهمزَةُ في أوَّلِهِ للجَعلِ، ومعنى: (أَمكَنَ فلانٌ فلانًا مِن كذا)؛ أي: جعل لَهُ مكانًا؛ أي: مَقرًّا، فالمكانُ واردٌ على سبيلِ المجازِ أو الكنايَةِ (عَن كَونِهِ في تَصَرُّفِهِ كما يَكونُ المَكانُ مَجالًا لِلكائِنِ فيهِ)[2]، وفي هذا غايةُ التَّحذيرِ مِنهُم حيثُ أُبرِزَ جزاؤُهُم في قالبِ المحسوسِ؛ لأنَّ إدراكَ المحسوساتِ أقربُ للذِّهنِ، فتكونُ أوقعَ في التَّهديدِ.

دِلالَةُ (مِن) في ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾:

سياقُ الكَلامِ موَجِّهٌ للمَعاني، مُبَيِّنٌ لِما استَكَنَّ مِنها

(مِنْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ اتِّصاليَّةٌ، وذلك أنَّ (مِنْ) الّتي يتعدَّى بِها فعلُ (أَمكَنَ) تَرِدُ لهذا المَعنَى، كالّتي في قولِهِم: لستُ مِنكَ ولستَ مِنّي.

وفي الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ، وذَلِكَ بحذفِ مفعولِ (أَمكَنَ)، والتَّقديرُ: فأمكَنَكَ اللّهُ مِنهُم، والّذي دلَّ على تعيينِ المَحذوفِ: سياقُ الكلامِ[3].

دِلالَةُ الخَبَرِ في جواب الشَّرط:

لُطفُ اللهِ تعالى بمُصطفاه، بطريقِ الوَعدِ له، والوَعيدِ لمن عاداه

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، وذلك أنَّ التَّحقيقَ في الجُملَةِ الشَّرطيَّةِ يُنظَرُ إِلَيها باعتبارِ جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كانَ جوابُها إنشاءً فهي جملةٌ إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ خبرٌ، فجملَةُ الشَّرطِ خَبَريَّةٌ.

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

وهذا الخبَرُ مَسوقٌ مِنَ اللهِ تعالى تسليَةً لنبيِّهِ ﷺ بطريقِ الوَعدِ لَهُ والوعيدِ والتَّهديدِ لَهُم[1]، فهو بهذا الاعتبارِ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ (الله):

إرادةُ التَّعظيم والمهابةِ بذكر اسم الله الأعظم مبرزًا بالتَّعريف بالعَلَميَّة

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ بالعَلَميَّةِ (اللهُ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لإرادَةِ التَّعظيمِ، وبيانِ قَدرِ الوصْفَيْنِ اللَّذَينِ دلَّ عليهما الاسمانِ الواردانِ في الخَبَرِ؛ وهُما وصفُ العِلمِ والحِكمَةِ، وأنَّهما وَصفانِ لا مُنتَهَى لكمالِهما؛ لكونِهما وصفَي مَن لَهُ جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

سِرُّ الإظهارِ في مَحَلِّ الإضمارِ:

الدّلالةُ على معاني الجلالِ والجَمالِ والكَمالِ في السّياق

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهو عَليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكرِ اسمِ الجلالةِ (اللهُ) في قولِه: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، وأُظهِرَ في هذا الموضِعِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، والنُّكتَةُ في ذلكَ: إدخالُ المهابَةِ وتَربيَتُها؛ لِما يدلُّ عليهِ الاسمُ الأَحسَنُ مِن معاني الكمالِ.

بلاغةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ:

بَيانُ سَعَةِ عِلمِ اللهِ تعالى ودَقيقِ حِكمَتِهِ ﷻ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لِاستقلالِهِ وعَدَمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ منه، وفيهِ إيماءٌ إلى سعَةِ علمِ اللهِ تعالى ودقيقِ حِكمَتِهِ سُبحانَهُ، فقولُه تعالَى: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بما تُكِنُّهُ قلوبُهُم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في معامَلَتِهم حَسَبَ ما يَعلَمُهُ منهُم[2].

مُناسبةُ خِتامِ الآيَةِ لِمَضمونِها:

في خَتمِ الآيةِ بالاسمَينِ الكريمَينِ (العَليم) و(الحكيمُ) في قولِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تناسُبٌ بديعٌ؛ إذ إنَّ عِلمَ اللهِ تعالى الواسِعَ يقتَضي عِلمَهُ بأحوالِ هؤلاءِ، وما يُضمِرونَهُ مِن أمرِ الخيانَةِ، وحِكمَتَهُ سُبحانَهُ تقتضي تَوهينَهُ كَيدَهُم، وإتقانَهُ ما يُقابِلُهم بِهِ، فهو لاحقُهُم لا محالَةَ[1].

حِكمَةُ اللهِ تعالى تَقتَضي تَوهينَهُ كَيدَ الكُفّارِ، وإتقانَهُ ما يواجههم به

سرُّ تقديمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

قدَّمَ العِلمَ على الحكمةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسبةً لِمَا وردَ في صدر الآية؛ حيث تكلّمَتْ عن إرادة وقوعِ الخيانةِ مِنَ الكُفّار عمومًا أو مِنَ الأسرى خصوصًا بناءً على المُراد بالضّمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾، وأمرُ الخيانةِ يقعُ تدبيرُه في الخفاء؛ فناسبَ أن يُقدِّمَ العلمَ ليعلّمَهم بأنّه لا تخفى عليه خافيةٌ؛ فهو عليمٌ بنيّات قلوبهم.

اللهُ لا يخفى عليه شيءٌ، وأفعالُه كلُّها حكيمةٌ

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتها:

خُتِمَت فاصلةُ هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، في حين خُتِمَت فاصلةُ الآيةِ السَّابقةِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وذلك مراعاةً للتّناسب بين معنى الآيتين؛ فالآيةُ الأُولى كان الحديثُ فيها عن بعض أحوالِ الأسرى، وما أُخِذَ منهم، وهذا أمرٌ يتبعُهُ كراهيةٌ ومعصيةٌ مِنَ الأسرى؛ لذلك كان صدورُ المعصيةِ منهم مُتوقَّعًا، ويريدُ القرآنُ أن يُرغِّبهم في العودة إلى الإسلام؛ فأعلمَهم بأنّ اللهَ يسترُ ما كان منهم مِنَ المعاصي، ويرحمُهم إذا آمنوا باللهِ ورسوله؛ فقال في ختام الآية: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

التَّرغيبُ بعد التَّرهيب منهجٌ في العقاب والتَّأديب

أمّا الآيةُ الثّانيةُ الّتي خُتِمَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فمع ما سبق ذِكرُه يظهرُ للقارئ التَّناسبُ الجميلُ في اختيار تذييلِ الآيةِ بالعلم والحكمة؛ لارتباطهما بمضمونِ معنى الآيةِ الّتي تتحدَّثُ عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/336.

إرادةِ الخيانةِ لرسول الله ﷺ، وما أعلمَ اللهُ به رسولَه في طمأنته بتمكُّنه منهم إن هم فعلوا ذلك؛ فهو سبحانَه عليمٌ بكلِّ النيات، حكيمٌ فيما يصنعُ فيهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخيانَةُ والخِداعُ:

بين الخيانة والخداع عمومٌ وخصوصٌ، وكلاهما من المنهيات المُفسِدة

الخداعُ هو إظهارُ أمرٍ، وقد أَضمَرَ الخادِعُ خلافَه[1]، وقَد يكون المُضمَرُ لَهُ يستحقُّ ذلكَ، كعقوبَةٍ يستحقُّها يَفجَؤُهُ بها، ونحو ذلكَ، بخلاف الخيانَة؛ فإنَّها مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[2]، ولذا تُعرَّفُ الخيانَةُ بأنَّها خِداعٌ في مَقامِ الائتِمانِ[3]، وبهذا التَّقريرِ يتبيَّنُ أنَّ الفرقَ بين الخيانَةِ والخداعِ من وَجهَين:

أحدُهُما: أنَّ الخداعَ أَعَمُّ مُطلَقًا مِنَ الخيانَةِ؛ إذِ الخيانَةُ خداعٌ خاصٌّ، وهو الخداعُ في مقامِ الائتِمانِ، والآخَرُ: أنَّ الخداعَ فيه ما هو حقٌّ، وفيه ما هو باطلٌ، ولذا صحَّ وصفُ اللهِ تعالى بالخداعِ على جِهَةِ المقابَلَةِ بالمَعنَى الحقِّ الّذي فيه، فيُقال: يُخادِعُ اللهُ تعالى مَن يُخادِعُهُ، بخلاف الخيانَةِ؛ فإنَّها كُلَّها باطلٌ ونقصٌ، ولا يصحُّ وصفُ اللهِ تعالى بِها بحالٍ؛ لتمحُّضِها للنَّقص، ولا كمالَ فيها بوجهٍ منَ الوجوهِ.

(1) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/284.
(2) الرّاغب، المفردات: (خون).
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/143.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»